موت الإنسان الكامل

من أوجه شتى

THE DEATH OF THE PERFECT MAN FROM VARIOUS PERSPECTIVES

www.muhammadanism.org
May 19, 2007
Arabic

بقلم

القس جردنر

BY

W. H. T. GAIRDNER

صدر من الجمعية الأسقفية ببولاق مصر
S. P. C. K.

فهرست

وجه

٣ تمهيد ــ في حياة يسوع المسيح وموته وقيامته

٥ الوجه الأوّل ــ في أن موت المسيح إنما كان إتماماً للناموس القائل إن الموت مفتاح الحياة

١١ الوجه الثاني ــ في أن موت المسيح بيّن لنا المحبة بكمالها

١٦ الوجه الثالث ــ في أن موت المسيح عمل من أعمال القواد الأبطال

٢٠ الوجه الرابع ــ في أن موت المسيح ظهر فيه الانتصار على الموت

٢٠ الوجه الخامس ــ وهو الأعظم والأخير

طبع في مطبعة النيّل المسيحيّة

تمهيد

إنّ لمعاشر المسيحيين اعتقاداً عجيباً مدهشاً وهو أن عملاً معيناً تمه إنسان معين في زمن معين كان لخير جميع البشر في جميع الأزمنة. ونعنى بذلك العمل حياة يسوع المسيح وموته وقيامته ــ الأمر الذي تمّ منذ نحو ألفيْ سنة.

فإذا كان لهذا العمل ــ وأهم أوجهه الموت ــ مثل تلك الأهمية العظيمة فلا يجوز التفريط في جعل نظريتنا فيه بسيطة جداً بل بالعكس لا بدّ أنْ يكون له عدة أوجه ننظر منها إليه. ويمكن درس كل منها والاستفادة منه على حدة. بهذه الطريقة وحدها نستطيع أنْ نكتشف غنى الكنوز التي في ذلك العمل حالة كون التفريط في جعل نظريتنا فيه بسيطة جداً يفضى إلى تجريده من بعض ذلك الغنى. ويلوح لنا أن بعض المفسرين المسيحيين قد ارتكبوا بعض الخطإ في كلامهم عن موت يسوع المسيح. فإنّهم بمحاولتهم أنْ يصلوا إلى أقصى مغازي ذلك الموت أهملوا أهمية الأوجه الأخرى ونظروا فيها من وجهة نظر واحدة فقط. ومما زاد في خطإِهم أن تلك المغازي البعيدة المرمى

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved.

لا يتأتى الوصول إليها إلاّ بمساعدة الأوجه الأخرى. فلا يتوهمن أحدٌ أنّ لكل عمل من أعمال الله وجهة واحدة مهمة وأوجهاً أخرى غير مهمة أو غير لازمة بل إن جميع الأوجه متصلة بعضها ببعض وأبعدها مرمى متداخل بسائر الأوجه الأخرى.

وسندرس في الفصل المقبل تلك الأوجه على حدة مبتدئين من أبسطها ومتجهين نحو أبعدها مرمى. ولا تظهر أهمية العلم إلاّ بربطها جميعها معاً. ولهذا الخطة فائدة أخرى وهي أن الذين لا يستطيعون أنْ يسلموا بالوجه الأبعد مرمى من هذه العقيدة سواء كان لتعصب أو لقلة خبرة يقبلون الوجه الأوسط ويسلمون به

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved.

الوجه الأول

﴿ في أنّ موت المسيح كان إنما إتماماً للناموس القائل إنّ الموت مفتاح الحياة ﴾

من أبلغ ما نطق به السيد المسيح من الآيات الكبيرة المعنى البعيدة المغزى قوله إن «من طلب أنْ يخلص نفسه يهلكها ومن أهلكها يحييها»

وتظهر أهمية هذا القول من كونه القول الوحيد المدون في البشائر الأربع كلها وكونه قد قيل في أربع أحوال مختلفة. وسنذكر تلك الأحوال لنبين على الأخص أن المسيح لم ينطق بذلك القول إلاّ لأنه تعليم ملائم لكل الأحوال

إن نص الآية المُشار إليها وارد في (لوقا ١٦: ٣٣) في معرض الحديث عن نهاية العالم ــ الأمر الذي سيتم بغتةً. وقد أوردنا هذا النص أولاً لأنه أعمّ تصريح للناموس القائل إن الموت مفتاح الحياة ونعيدها هنا «من طلب أنْ يخلص نفسه يهلكها ومن أهلكه يحييها»

وأورد متى هذه الآية عند ختام وصايا المسيح للأثنى عشر تلميذاً عند إرساله إياهم أول مرة فقال «من وجد حياته يضيعها. ومن أضاع حياته من أجلي يجدها» (متى ١٠: ٣٠)

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved.

وأخبر السيد تلاميذه مرة عن موته (وهي أوّل مرة أنبأهم فيها عن ذلك) فحاول بطرس أنْ يرجعه عن عزمه. فقال: «من أراد أنْ يخلص نفسه يهلكها. ومن يهلك نفسه من أجلي يجدها» (متى ١٦: ٢٤)

وأخيراً إذْ بدأت ظلال الموت تكتنف نفسه قال لتلاميذه قبيل ذلك بيومٍ أو يوميْن: «من يحب نفسه يهلكها. ومن يبغض نفسه في هذا العالم يحفظها إلى حياة أبدية» (يوحنا ١٢: ٢٥)

إنّ سبب قوله (في آيتيْ متى ١٠: ٣٩ ومتى ١٦: ٢٩) «من أجلي» هو إن التطبيق كان بذل النفس الذي كان مطلوباً من أتباعه. على أنه كان يعتبر ذلك المبدأ ناموساً عاماً كما يتضح لكَ ولا سيما من القرينة في آية يوحنا ١٢: ٢٥ إذْ بيّن السيد إنه جاء خاضعاً لذلك الناموس قبل كل من سواه ويليه تلاميذه الذين جاءوا بعده وبه. لذلك يصح اعتبار الآيات الأربع التي أوردناها مبدأً عاماً بقطع النظر عن القيد المرتبطة به وهو قوله: «من أجله» أو بتأويل هذا القيد إلى قولنا: «من أجل أحسن شيء في هذا العالم»

ولنا في هذه الآيات الأربع إشكالان ينقسم كل منهما إلى عبارتيْن. والمهم لدينا أنْ ننظر في الإِشكال الثاني ولكننا لا نستطيع إدراكه إلاّ بفحص الإِشكال الأول الذي يمكن بسطه على الوجه الآتي:

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved.

من طلب أنْ يخلص
من وجد
نفسه يهلكها
من أراد أنْ يخلص
من يحب

فكأن الكتاب يقول: لقد كان المنتظر أنْ يُقال إن حياة الإنسان هي أثمن شيء في هذا العالم إذ ليس للإنسان إلاّ مقدار معين منها فيجب أنْ يُحافظ عليه. أو كان المنتظر أنْ يُقال مهما يحدث يجب على الإنسان أنْ يطلب أنْ يخلص نفسه أو يجدها أو يسعى ليخلصها أو يحبها ــ فما أغرب أنْ يُقال إذاً إن الذين يفعلون ذلك يفشلون ولا يبلغون غايتهم بل بالعكس

ولماذا؟

إن نصوص الآية تبيّن لنا السبب. فقيمة الحياة هي ما يتممه الإنسان في هذا العالم. أو هي الطريقة التي يسير فيها. إن الغاية التي يتوجه نحوها. وبعبارة أخرى إن حياته وإنْ تكن «وحيدته» (مزمور ٢٢: ٢٠) فقيمتها إنما هي بهذه الأمور. فإذا أحبها حباً مجرداً عن تلك الاعتبارات. أو طلب أنْ يخلصها أو يجدها أو أحبها في ذاتها ولذاتها فإنه بنفس وجدانه إياها يفقدها إذْ يدرك أنه وجد شيئاً لا يساوي

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved.

التعب الذي بذله وإنه قد خلص شيئاً لا يستحق الخلاص وقد أحب شيئاً لا يستحق الاقتناء. فنرى أن نفس حياتنا الوحيدة لا تستحق أن نطلب أن نخلصها بأي مسعى وكل مسعى من المساعي

اعتبر ذلك في الجندي الأسبرطي الذي هرب وحده من الدفاع عن مضيق ثرموبيلي ضد الفرس. فإنه أحب حياته وأراد أنْ يخلصها وبالفعل خلصها. ولكنه خسر كل ما يجعل الحياة ذات قيمة ــ حب الوطن واحترام الآخرين ــ فلما عاد إلى وطنه لم يرَ من مواطنيه إلاّ صدوداً واحتقاراً فوجد أن الحياة التي سعى لإنقاذها قد فقدها وللحال أهلك بيده ما كان قد أصبح بلا قيمة

فإذ علمت ذلك سهل عليك فهم الإِشكال الثاني:

من أضاع حياته
من يهلك نفسه } يجدها
من يبغض نفسه } يحفظها

إن ظاهر هذا الإشكال أشد غرابة من الإِشكال الأول. ولكن الحل الذي بسطناه يوضح لنا المعنى وهو أن الذي يفضل مبدأ على حياة بدون مبدإ أو الذي يشخص ببصره إلى غاية معينة في هذه الحياة وإلى جميع الأمور التي هي علة وجود الحياة ويتمسك بها ولو

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved.

كلفه ذلك فقدان الحياة نفسها ــ إنّ مثل هذا الرجل بفقدانه حياته يجدها ويخلصها ويحفظها كما وجدها الأبطال الذين دافعوا عن مضيق ثرموبيلي فاكتسبوا ثناء وطنهم واستراحة ضميرهم وخلدوا لأنفسهم اسماً لا يزول

ترى كيف طبق المسيح هذا الناموس على نفسه؟

لا ينكر أحد أن تطبيقات هذا الناموس كثيرة لا يحصرها عدد وليست جميعها مما يقتضى الموت الجسدي أو الطبيعي. فالرجل الذي يرفض مثلاً مركزاً سامياً لأنه مقيد بشرطٍ مخلٍ بالشرف يضرّ في الظاهر بنفسه كأنه يبغض حياته لإهماله خيراً جوهرياً لها. ولكنه في الحقيقة يخلص نفسه لأن النفس بعد تجربة كتلك تبدو بأسمى مجاليْ القوة والنشاط. ولو قبل ذلك المركز السامي لأصيبت حياته الأدبية بالموت. وهكذا الواعظ الذي يفضل الشهرة على الإخلاص والأمانة. والغازي الذي يفضل الغزو على العدل. والتاجر الذي يفضل الغنى على الأمانة. فإن أمثال هؤلاء يجدون أخيراً أن حياتهم قد أصبحت عدماً. نعم ربما يربحون العالم كله ولكنهم يخسرون أنفسهم والحياة التي ضحوا بكلَ شيء في سبيل تخليصها

فالموت الجسدي إذاً لا يدخل بالضرورة في تطبيق الناموس

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved.

الذي نحن بصدده. وختام الأمر أن الإنسان يجب أنْ يكون مستعداً ليخسر ليس أمراً حيوياً فقط بل الحياة نفسها ــ أيْ أن يفضل المبدأ الأسمى ــ الله ــ على الحياة الجسدية نفسها

فواضح إذاً إننا إذا اعتبرنا يسوع المسيح القدوة العليا وإذا صدق أن يسوع المسيح أراد أن يجعل نفسه مثلاً على صدق هذا الناموس الذي وضعه فلا يجب أن يجعل المثل على ذلك مجازياً نظرياً فقط بل حقيقياً عملياً وعليه يجب أن يعطى القدوة العليا بتفضيله موت الجسد على غايته العليا ولا يكفي أن «يفضل» ذلك مجرد تفضيل فقط بل أن يرضى بالموت بطيبة خاطر

وإلاّ فكيف كان يمكنه أن يبرهن لنا الحقيقة العظمى المنطوي عليها النصف الآخر من الإشكال أي إن الذي يموت ويفقد حياته في سبيل الله إنما ينقذ تلك الحياة؟ فهو يجب أن يموت لكي يقوم ثانياً. وإن موته وقيامته بالمجد هما اللذان أثبتا لنا هذه الحقيقة. ولولا ذلك ما كان المسيح يصلح لأن يكون قدوتنا العظمى. فلماذا نماحك ونقول إن ذلك الموت لم يكن ليتفق مع عظمة المسيح ومقامه باعتباره نبيّاً؟ إن الواقع بعكس ذلك

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved.

الوجه الثاني

﴿ في أنّ موت المسيح يبين لنا المحبة بكمالها ﴾

لا حاجة بنا أن نثبت أنّ بذل النفس عن الآخرين أسمى الصفات الممدوحة بين الأمم والقبائل المختلفة فإنها هي المحبة حتى الموت وبها تبلغ البشرية مراتب الفضيلة أي يصل الإنسان إلى ذروة الإنسانية لأن الفضيلة أعظم مميزات الإنسان

وإذا علمت ذلك أفلم يكن أمراً لا مندوحة عنه أن الإنسان الكامل ــ النموذج الطّاهر ــ تظهر فيه هذه الصفة؟

فهذا الاعتبار شبيه بما تقدم في المقال السابق أيْ إن الإنسان النموذجي يجب أن تثبت فيه أسمى نواميس الفضيلة وإلاّ فكيف يكون نموذجاً محسوساً وكيف يستطيع أن يجعل نفسه مثالاً لجميع الأمكنة والأزمنة؟ فيدهشنا أن البعض ينكرون هذه الحقيقة بل هذا الامتياز الذي هو لذلك الإنسان النموذجي لغير علة سوى الادعاء بالغيرة على مجده وكرامته

إن المحبة هي أعظم ما في هذا العالم وهي تقرب الإنسان من الله وأسمى درجاتها وظواهرها المحبة حتى الموت. فلقد كان من المنتظر

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved.

إذاً إن الإنسان النموذجي يظهر هذه الصفة السامية. أما وقد وقع ذلك «الممكن» فليس لنا إلاّ أن نحني رؤوسنا إجلالاً واحتراماً ساجدين. قال أحد كاتبي العهد الجديد «كان يليق الخ» أيْ إن الأمر كان قد أصبح في حيز الجمال الأدبي

وقد ردد يسوع المسيح نفسه صدى هذه الحقيقة في إحدى عظاته فقال: «ليس لأحد حب أعظم من هذا أن يضع أحد نفسه لأجل أحبائه» (يوحنا ١٥: ١٣)

وقال في موضع آخر: «أنا هو الراعي الصالح والراعي الصالح يبذل نفسه عن الخراف... أعرف خاصتي وخاصتي تعرفني... وأنا أصنع نفسه عن الخراف» (يوحنا ١٠: ١١ ــ ١٥)

إننا عند تلاوتنا هذه الكلمات تخطر في بالنا أفعال الكثيرين من الأبطال المجيدين. فالأب الذي يدخل بيتاً محترقاً لينقذ أولاده. ورجل القبيلة الذي يفضل الموت على أن يبوح بمكمن رئيسه. والشاب الذي يقذف بنفسه إلى الأمواج لينقذ المشرفين على الغرق. والجندي الذي يثبت في موضعه حتى الموت لكي ينقذ فرقته. والرجل الذي يثب إلى البحر لإنقاذ غيره ــ وألوف من أمثال هذه الحوادث المخلدة في سفر الإنسانية هي أسمى ما يظهره الإنسان من صفات وأخلاق

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved.

وكلما اشتدت فظاعة الموت وكان طوعاً واختياراً ازداد مجد العمل. فكم بالحري إذا كان الموت بطيئاً وفظيعاً كالصلب؟ وكم بالأحرى إذا كان ذلك ناتجاً عن طوع واختيار وفي الإمكان اجتنابه في أية دقيقة كانت؟ أما كنا نقول إن تلك المحبة قد بلغت منتهاها؟ أما كنا نقدم لمن يتصف بها أسمى تاج المجد؟ فبهذا الاعتبار كان يجب أن يموت المسيح

وبهذا الاعتبار نتمثل موته مجداً ــ الأمر الذي ينكره أولئك الذين يجهلون المجد الحقيقي. ونحن لا نعرف حقيقة المحبة إلاّ من عمله وبلك نرقى إلى تقدير قيمته. قال الكتاب: «بهذا قد عرفنا المحبة إن ذاك وضع نفسه لأجلنا فنحن ينبغي لنا أن نضع نفوسنا لأجل الإخوة» (١يوحنا ٣: ١٦)

ومن خصائص هذه المحبة إن كل فرد يشعر أنها له شخصياً ــ أيْ إن المسيح وضع نفسه لأجل شخصياً. قال بولس الرسول: «... الذي أحبني وأسلم نفسه لأجلي» (غلاطية ٢: ٢٠)

وإذ كان بذل النفس «لأجل الأحباء» أسمى أنواع المحبة فما عسى أنْ يقال عن بذل النفس لأجل الأعداء؟ لا شكّ أن مثل تلك المحبة فوق طاقة البشر. قال الكتاب: «فإنه بالجهد يموت أحد لأجل

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved.

بار. ربما لأجل الصالح يجسر أحد أيضاً أن يموت» (رومية ٥: ٧ و٨)

في هذه الآية أمران حريان بالاعتبار وقد رأينا أن أولهما أسمى أنواع المحبة أي بذل المسيح نفسه عن الأعداء هو استعلان لمحبة الله. وليت شعري كيف كان يصح أن يقال هذا لو لم يكن الله في المسيح مصالحا العالم لنفسه (٢كورنثوس ٥: ١٩) حقاً أن بذل أحد أبناء الناس نفسه ما كان يمكن اعتباره عملاً من أعمال المحبة الإلهية. ولكن هذا هو الواقع وهو من أغرب أمور العالم. فمحبة الله ومحبة المسيح هما شيء واحد لا غير. ومحبة المسيح للخطاة حتى الموت هي مقياس محبة الله لهما

إن بذل النفس أمر مستطاع عند الله. وبذلك النفس الإلهي تم بالعمل الفدائي الذي قام به المسيح. ولو أنكرنا ذلك على الله تعالى لم نرفع شأنه بهذا الإنكار بالنسبة إلى الإنسان بل رفعنا شأن الإنسان بالنسبة إلى الله تعالى

على أننا لا يجب أن نخرج عن موضوعنا الآن وهو أن المحبة حتى الموت هي أسمى ظواهر هذه الحياة ولا سيما إذا كانت موجهة إلى من ليس أهلاً لها ومن ينكرها ويجحد فضل صاحبها.

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved.

وإذا صدق ذلك فإن أعظم أبناء الإنسان ونعني به الإنسان النموذجي ــ النبي الذي نطق بسيرته وأعماله كما نطق بفمه ــ كان يجب أن يموت تلك الميتة ليربح أسمى أكاليل المجد. ومن أنكر أن المسيح فعل ذلك بحجة إن ذلك الإنكار يزيد في مجد المخلص فقد أساء فهم الحقائق إساءةً عجيبةً

قال الكتاب: «إن محبة المسيح تحصرنا... واحد قد مات لأجل الجميع... البار من أجل الأثمة» (٢كورنثوس ٤٥: ١ و١بطرس ٣: ١٨) فلنعترف بأن هذه هي المحبة الفائقة الوصف والحدود وأنه لا يسعنا إلاّ أن نقبلها بشكرٍ لا يمكن أنْ يعبر عنه

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved.

الوجه الثالث

﴿ في أنّ موت المسيح عمل من أعمال القواد الأبطال ﴾

إن أول شرط يُطلب من الضابط الشجاع المخلص هو أن يشاطر رجاله أخطار الحرب ومصائبها ومخاوفها وبلاياها. وقد لُوحظ في معارك الحرب الكبرى أن الضباط الإنكليز كانوا يعيشون مع أفراد الجيش عيشةً واحدةً فيقاسمونهم سائر الأخطار والمصائب ويتعرضون للموت أكثر مما يتعرض العساكر ولذلك أحبهم جنودهم وأخلصوا لهم الطاعة ولم يحجموا عن الإقدام على كل ما كان يطلب منهم مهما تعظم الأخطار. ولم يتفرد ضباط الإنكليز وحدهم بهذه الصفة بل شاركهم فيها غيرهم في كل زمان في جميع الأوطان. ومن الجهة الأخرى يُقال إنه عندما سقطت إحدى المدن في هذه الحرب ظهر أمر غريب وهو أنه بينما كانت جنود الحامية تتضور من الجوع وتأكل الفيران والجرذان كان الضباط يتنعمون بأطايب الأطعمة فيأكلون في الفنادق ويعيشون في الأبنية الفاخرة. ولذلك لم يكن ينتظر من الحامية أن تفعل أمراً كثيراً في سبيل الهجوم أو الدفاع وفعلاً لم تفعله

فالتاريخ يشهد أن كل من اشتهر من قواد العالم كان يشاطر جنوده

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved.

السراء والضراء بل يعاني أكثر مما يعانونه من الصعاب والمشقات

مثال ذلك أنه لما عاد إسكندر الكبير من غزوة الهند إلى بابل اضطر أن يمر بجيشه في صحاري بلوخستان القاحلة حيث هلك جانب كبير من جنوده من شدة العطش. ففي ذات يوم بينما هم متعطشون إلى جرعة ماء اكتشفوا في جوارهم حوضاً صغيراً جمعوا منه بعد الجهد الجهيد كأس ماء وجاءوا بها إلى الاسكندر. وإذ رفعها إلى شفتيه أبصر عيوناً شاخصةً إليه فسكب الماء على الأرض قائلاً «إنني لا أحجم عن معاناة الآلام التي يعانيها جيشي هذا!» فلا عجب إذ ذاك أن جيشه كان مستعداً أن يقتحم معه معامع الهلاك. وكذلك فعل داود أيضاً فإنه وهو في أحوال شبيهة بما ذكر سكب كأس الماء أمام الرب وأبى أن يشربها. ويحكى عن أحد قواد الإنكليز في أيام حروب نابليون أنه بينما كان ملتهباً من شدة العطش وقد جِيء إليه بكأس ماء بارداً أبصر إلى جانبه جريحاً يطلب جرعة ماء فحرم القائد نفسه وأعطى الماء لذلك الجريح

أما يسوع المسيح فكان قائداً في حرب ــ أعظم ــ حرب تعب ومشقة وعناء وموت ــ حرب شهرها إبليس والعالم والخطية. ونقصد بقولنا إنه كان قائداً إنه وحده قام بعمل الخلاص وأن نشر ذلك العمل كان يقتضي تجنيد جيش من الأتباع. أفلا ترى إذاً أن آلام هذا

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved.

القائد كان ضرورية باعتبار لياقته وكقائد وأنه لا بدّ له من صيرورته «رجل أوجاع ومختبر الحزن». ولو لم يكن كذلك ما كان يجوز له أن يتوقع من أتباعه أن يرضوا باحتمال الآلام. قال الكتاب:

«لأَنَّهُ لاَقَ بِذَاكَ الَّذِي مِنْ أَجْلِهِ الْكُلُّ وَبِهِ الْكُلُّ وَهُوَ آتٍ بِأَبْنَاءٍ كَثِيرِينَ إِلَى الْمَجْدِ أَنْ يُكَمِّلَ رَئِيسَ خَلاَصِهِمْ بِالآلاَمِ» (عبرانيين ٢: ١٠)

ومعنى قوله «يكمل» أيْ يحوز على تمام الكفاءة. والكفاءة في جهاد كهذا تعنى تحمل أعظم الآلام

فإخواننا الذين يطعنون في نصوص الفصول التي يختتم بها بشائر الإنجيل يجب أن ينظروا إلى حادثة آلام المسيح الفظيعة من هذه الوجهة فإذا نظروا إليها كذلك لم يروا فيها عيباً بل لا بد أن يتفقوا معنا إذْ ذاك على أنه بتلك الآلام وحدها «كلل المسيح بالمجد والكرامة» (عبرانيين ٢: ٩) وأن تلك الآلام هي التي أهلته للقيادة العليا في تلك الحرب الهائلة

وإذ صدق ما قلناه وجب أن يكون الموت من جملة تلك الآلام لأنه أعظم أنواعها بل هو أعظم ضحية يطلب من الجندي تأديتها. وقد قال الشاعر هوراس الروماني: «ما أمجد وأسمى أن يموت المرء عن وطنه» ونحن نقول ما أمجد وأسمى أن يموت المرء عن ملكوت الله»

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved.

فما بال الجهال يصيحون ويصخبون عندما يُقال لهم إن القائد الأعظم قد مات ميتةً الأبطال واحتمل طوعاً من عناء الآلام ما تنوء تحته راسيات الجبال. ألا يجب أن نعترف بأن ذلك الموت كان باعتبار الوجهة الأدبية أمراً واجباً.؟ قال الكتاب: «ولكن الذي وضع قليلاً عن الملائكة يسوع نراه مكللاً بالمجد والكرامة من أجل ألم الموت لكي يذوق بنعمة الله الموت لأجل كل واحد» (عبرانيين ٢: ٩)

إن الملائكة لم يكن في وسعها احتمال ذلك الأمر. لذلك قال «فَإِذْ قَدْ تَشَارَكَ الأَوْلاَدُ فِي اللَّحْمِ وَالدَّمِ اشْتَرَكَ هُوَ أَيْضاً كَذَلِكَ فِيهِمَا لِكَيْ يُبِيدَ بِالْمَوْتِ ذَاكَ الَّذِي لَهُ سُلْطَانُ الْمَوْتِ أَيْ إِبْلِيسَ» (عبرانيين ٢: ١٤)

أجل إن قائد تلك الحرب يجب أن يقتاد جيشه حتى إلى الموت

وربّ معترض يقول: إنّ القائد العظيم لا يعرّض نفسه للهلاك لأن الحاجة إليه عظيمة لإدارة صفوف القتال

نقول إن الديانة المسيحية تجمع دائماً بين المتناقضات المستحيلة فأمامنا قائد ضحى بنفسه حتى الموت معطياً بذلك أسمى قدوة للبشر. وأمامنا أيضاً قائد حي لا يستطيع أن يمسه الموت بأذىً إذْ يقول:

«لا تخف. أنا هو الأول والآخر. والحي وكنت ميتاً. ها أنا حي إلى أبد الآبدين آمين. ولي مفاتيح الهاوية والموت»

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved.

الوجه الرابع

﴿ في أنّ موت المسيح ظهر فيه الانتصار على الموت ﴾

نظرنا سابقاً في لياقة موت المسيح باعتباره قائداً يفعل شخصياً جميع ما ينتظره من أتباعه وهو الجهاد حتى الموت. ونتقدم الآن لنبحث بتفصيل أتمّ عن الحرب التي شهرها ذلك القائد وعلى من شهرها؟ والجواب عن هذيْن السؤاليْن يوضح لنا ضرورة موت القائد ولياقته بوجه أتمّ

أما العدو الذي أثيرت الحرب عليه فكان إبليس والغرض من إثارتها إطلاق الإنسان من عبودية الخطية والموت. قال صاحب الرسالة إلى العبرانيين «ولكن الذي وضع قليلاً عن الملائكة يسوع نراه مكللاً بالمجد والكرامة من أجل ألم الموت لكي يذوق بنعمة الله الموت لأجل كل واحدٍ» (عبرانيين ٢: ٩)

إن البشرية كانت قد ذاقت الموت بل شربت كأسه حتى الثمالة. والموت على ما يقول الكتاب نتيجة الخطية والخطية دخلت إلى العالم بواسطة قوة الظلام. فلما جاء ملء الزمان جاء قائد مملكة النور ليطلق

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved.

الشعب الأسير وكان لا بدّ أن يشاطر كل أسير من أولئك الأسرى في شرب تلك الكأس حسبما بيَّنا سابقاً. وذلك سواء كنا نعتقد (١) أن الموت الطبيعي جعل عقاباً له على سقوطه (الذي لولاه لكان الإنسان ينتقل عند الفراغ من حياته على هذه الأرض إلى حالة مجيدة سعيدة) أو نعتقد (٢) أن صاحب الرسالة لم يقصد مجرد الموت الطبيعي وحد بل ما يتعلق به أيضاً من أمراض وآلام وأهوال ومخاوف. وفي هذه الحالة يكون الإنسان قد فقد الموت الهنيء السعيد ــ الموت المصحوب بثقة وإيمان ورجاء وسرور. ومهما يكن فالأمر المهم هو أن قائد الخلاص كان لا بدّ له أن يذوق كأس الموت المر عن كل إنسان لكي يتغلب على الموت وينقذ البشرية من أهواله. فهذا يبين لنا السبب الذي من أجله شرب المسيح تلك الكأس المرة وعانى ميتة محفوفة بالأهوال والآلام والظلمات الروحية ــ بل ميتة ترتب عليها الشعور بانفصاله موقتاً عن أبيه السموي. وبعبارة أخرى إنه أراد أن يشرب حتى الثمالة لا كأس الموت الطبيعي فقط بل الموت المصحوب بالآلام والأهوال الناتجة عن خطية الإنسان ــ الموت الذي رئيسه إبليس لا الله

ولماذا؟ ألم يكن في وسع الله أن ينقذ البشر بمجرد عفوه عنهم

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved.

إن المحبة المخلصة تقتضي على المحب المخلص أن يعاني كل ألم في سبيل إنقاذ حبيبه إذا كان في خطر. فإذا رآه مشرفاً على الغرق وثب إلى الماء. وإذا رآه في وسط النار قذف بنفسه إلى النار

ولكن علام الموت؟ ألا تقضي الحكمة على المنقذ أن يحتاط لحياته أيضاً حتى يتمكن من انتشال الهالك من خطر الهلاك

كلا. ليس الأمر كذلك دائماً. فإن كثيرين من المنقذين اضطروا أن يبذلوا حياتهم فعلاً لينقذوا حياة غيرهم ممن هم في خطر وهم عالمون إنهم بذلك يعرضون أنفسهم للموت. ففي هذه الحالة تظهر المحبة على أسماها وأتمّها كما أسلفنا. لذلك كان على المسيح أن يموت في محاولته إنقاذ البشر من عدوه الروحي أي الموت. ذلك بأن يطلق لذلك العدو الحرية التامة لإتيان كل ما يستطيعه ثم يقنعه بأنه مغلوب على أمره. وإلاّ فإن ذلك العدو يدعى (١) أنه لم يستخدم كل قواه ولو استخدمها لحاز الانتصار (٢) أن نفس المقيدين بسلاسل تلك العبودية كانوا يدعون أن منقذهم لم يذق الآلام التي عانوها وهكذا تظل المسئلة غير مبتوتة من الوجهة الأدبية. فلهذيْن السببيْن فضل المسيح أن يجتاز في وسط وادي ظلال الموت من أوله إلى آخره ولا يصل إلى النور ثانية

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved.

حتى يكون قد واجه كل أهواله وعانى كل أوجاعه

فإبليس رب الموت أفرغ كل جهده في محاربة رب الخلاص ولكنه فشل. لذلك صار من السهل على أتباع ذلك القائد أن يجتازوا الثغرة التي شقها لهم قائدهم. فهو ذاق الموت عن كل إنسان. وكل إنسان يستطيع أن يغلب الموت بالإيمان به. قال الكتاب:

«فإذ قد تشارك الأولاد في اللحم والدم اشترك هو أيضاً كذلك فيهما لكي يبيد بالموت ذاك الذي له سلطان الموت أي إبليس. ويعتق أولئك الذين خوفاً من الموت كانوا جميعاً كل حياتهم تحت العبودية» (٢: ١٤ و١٥)

إن معنى هذا القول جلي واضح الآن. فالأولاد قد تشاركوا في اللحم والدم (مع كل الآلام التي هي إرثهم) لذلك وجب أن يشاركهم قائدهم أيضاً. (وكثيراً ما يسمى القائد جيشه في الحرب أولاده) وهكذا بالموت ــ المشكل العظيم الذي قد شرحناه ــ تمكن من التغلب على رب الموت وكسر شوكته وتبيان كونه وهو في منتهى قوته أضعف من الله ومن المؤمن الحقيقي. بهذه الطريقة تمكن قائد الخلاص من إنقاذ الذين كانوا يئنون تحت عبودية ملك الظلام

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved.

فما أبسط المشكلة الآن. وما أقل حكمة الذين ينكرون موت المسيح بحجة أنه يدل على الضعف. فلقد رأينا وهن هذه الحجة الآن وعلمنا أن إنكار موت المسيح دليل على قصر نظر وضعف إدراك. إننا نفضل أن نرى المسيح مكللاً بإكليل المجد والكرامة وأن نراه قد أعطى اسماً فوق كل الأسماء على أن ننكر موته بحجة أن ذلك شائن لمقامه!

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved.

الوجه الخامس

﴿ وهو الأعظم والأخير ﴾

رأينا سابقاً أنه لم يكن مندوحة «للإنسان الكامل» ــ في محاربته الموت وسلطان الموت ــ عن أن يموت هو نفسه

إلاّ إن ألم الموت هو سبب الخطية، قال الكتاب «أين شوكتك يا موت؟... شوكة الموت هي الخطية» فالحرب التي شهر المسيح على الموت كانت حرباً على الخطية والإثم وعصيان شرائع الله. وهذه الحرب أيضاً قد اقتضت موت المخلص لعدة اعتبارات

(١) البار ضد العالم

لا يجهل أحد عاقبة الكثيرين من الذين يتبعون البر في هذا العالم ويسيرون بحسب نواميسه مهما كلفهم. فهم يضحون بكل مكسب ويتحملون كل خسارة ويقبلون كل هزء فينفر الناس منهم ويضطهدونهم وينبذونهم من الهيئة الاجتماعية. وكثيراً ما يعانون الشدائد ويتعرضون للموت. وهذا الموت منتهى ما يقاسون لأن العالم يكره البر الذي يبكت على الشر ويفعل كل ما في وسعه لمقاومته ونتيجة تلك المقاومة الموت. فالذي يضحي بأقل شيء في سبيل البر

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved.

يعاني الموت بهذا الاعتبار. وأما «الإنسان الكامل» فيجب أن يموت فعلاً وذلك بإثباته الأمر في نفسه. وهل يعقل أن يموت الشهيد إراحة لضميره ويحجم «الإنسان الكامل» عن أن يكون شهيد الشهداء؟ كلا! فلذلك كان لا بدّ للمسيح أن يموت بهذا الاعتبار

إن هذه الحقيقة لا يوضحها لنا الكتاب المقدس والاختبار فقط بل الفلاسفة أيضاً فقد ذكر أفلاطون في كتاب الجمهورية ما يكون من عاقبة الإنسان البار الذي يقاوم شرور هذا العالم غير متراخ في شيء ولا محجم عن شيء ولا معتمد على شيء سوى بره. فمثل هذا الرجل يكون بينه وبين العالم شبه تجاذب وتدافع شديديْن فتكون النصرة الأدبية له والنصرة الجسدية لخصمه الذي لا يهمه إلاّ أنْ تروى غليله بدمه. ولا شكّ أن سقراط أوحى لأفلاطون بهذه الحقيقة بسيرته الفاضلة وموته في سبيل ضميره. على أن يسوع المسيح أكمل نبوة أفلاطون بحرفيتها. وهاك نصّ ما قاله (أفلاطون) في كتابه المشهور بعنوان الجمهورية: ــ

لنفرض أن العالم اتهم رجلاً هو أفضل الناس. فهل ترد عنه فضيلته تهمة شائنة؟ لا شكّ أن الرجل العادل إذا ظنه الناس غير

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved.

عادل جلدوه وفقأوا عينيه وصلبوه وأذاقوه جميع أنواع العذاب والهوان

وقد أدرك القارئ إذاً إن الجهاد بين البار «الكامل» وعالم الإثم ليس للمجاهد الأول سوى سلاح واحد وهو بره. فإذا اتخذ سلاحاً آخر غيره ضاعت مزيته وظل جهاده غير مجزي لأنه حالما يترك الحيز الأدبي ويعمد إلى الحيز المادي تزول هيبته. ولذلك لم يشأ المسيح أن يستعين بجيش على قوات الشر (كما حاول إبليس أن يغويه على الجبل) أو بأعجوبة (كما حاول إبليس أن يغويه في جثسيماني وكما حاول اليهود أن يغووه وهو على الصليب). فهو احتمل تيار بغض العالم له بسيرة طاهرة وشهادة حقة. وقد استطاع العالم أن يميته جسدياً بسبب ذلك وفي الواقع أماته ولكنه قام من الموت وأثبت للعالم أجمع أن النصرة الأدبية هي نصرة تامة وأن النفس التي تربح النصر بتلك الكيفية لا يمكن أن تهلك

فالقارئ يرى أن الموت الجسدي كان لا بدّ منه ليسوع المسيح بصفته ناصر البر الكامل

(٢) فضيحة الخطية ودينونتها لنفسها

ينتج عما تقدم إن الخطية ظهرت على حقيقتها في ذلك الجهاد

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved.

المميت مع القدوس البار. فإنها كثيراً ما تحاول أن تتستر وتخفي فظاعتها وتظهر بمظهر الجمال ولكن حقيقتها ظهرت بصليب المسيح فإنها حاولت هنالك أن تميت إنساناً كان خالياً من الخطية. وبعبارة أخرى اجتهد الإثم أن يهلك البار الكامل وبالتالي أن يهلك البر نفسه فاجتمعت جميع الجرائم والآثام الفظيعة في الحملة التي وجهت على المسيح. وهكذا دانت الخطية نفسها بنفسها إذْ ماطت عن وجهها اللثام وانكشفت حقيقتها بأجلى بيان فإذ بها قتّالة مهلكة مبغضة لله. لذلك قال المسيح وهو على عتبة ذلك الصراع العظيم: «الآن دينونة هذا العالم. الآن يطرح رئيس هذا العالم خارجاً» (يوحنا ١٢: ٣١)

وكان ذلك بمثابة دينونة النفس للنفس وقد أتمها المسيح بجعله الخطية تظهر طبيعتها الحقيقية في شخصه. قال الكتاب إن الذي «لا يؤمن قد دين. وهذه هي الدينونة أن النور قد جاء إلى العالم وأحب الناس الظلمة أكثر من النور لأن أعمالهم كانت شريرة» (يوحنا ٣: ١٨)

أليس هذا (أي دينونة الخطية لنفسها) مفتاحاً لسر دينونة الله نفسه لها؟ إننا سننظر في هذه الوجهة أي دينونة الله لها في ما يأتي وإنما نقول هنا إن الله دان الخطية بجعله إياها تدين نفسها أي بسماحه

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved.

لها أن تسكب جام غضبها على القدوس الكامل. فكأنها صلبت نفسها[١] إذا ذاك

وقد كان لا بدّ من دينونة الخطية ولم يكن يمكن أن تتم تلك الدينونة بطريقة أخرى. لذلك نرى مرة أخرى أن قائد البشر قدوس الله كان لا بدّ له من الموت

(٣) دينونة الله للخطية

رأينا أن طريقة دينونة الله للخطية كانت بتركه تفعل أقصى ما تستطيعه بكلمته المتجسدة فلنوجه أفكارنا في الختام إلى الوجه الذي هو أسمى الكل وهو أن الله نفسه دان الخطية بالمسيح يسوع وأنشأ كفارة لجنس الخطاة. جاء في رومية ٨: ٣ قوله: «إن الله إذ أرسل ابنه في شبه جسد الخطية ولأجل الخطية دان الخطية في الجسد»

وبعبارة أخرى إن الجسد البشري أخطأ والجسد البشري أظهر دينونة الخطية. وقد بيّنا سابقاً إن إثبات الدينونة لم يكن يمكن أن يتم

---

(١) جاء في يوحنا ٣: ١٤ إن الحية ــ رمز الخطية ــ رفعت على خشبة. فكأن الخطية سمرت على الصليب. ألسنا نرى هنا معنى تلك الآية التي أشكلت على كثيرين في ٢كو ٥: ٢١ حيث يُقال إن «الذي لم يعرف الخطية جعل خطية لأجلنا»

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved.

إلاَّ على ذاك الذي بمحبته ورأفته اتخذ جسداً بشرياً لهذا الغرض عينه. وكانت محبة الله المظهرة في المسيح تقتضي هذا الأمر بعينه أي أن يثبت في نفسه برّه من جهة وفظاعة الخطية من جهة أخرى «بهذا قد عرفنا المحبة ــ إن ذاك وضع نفسه لأجلنا» (١يوحنا ٣: ١٦)

فالمسيح مات عن خطايانا ــ «البار من أجل الأثمة ــ لكن يقرّبنا إلى الله» (١بط ٣: ١٨) «الذي حمل هو نفسه خطايانا في جسده على الخشبة لكي نموت عن الخطايا فنحيا للبر» (١بط ٢: ٢٤)

أجل. إن منتهى الحب الأسمى هو الذي اقتضى كل ذلك ونفذه في نفسه. نقول إنه «اقتضى ذلك» فقد قال الكتاب: «الذي قدمه الله كفارة بالإيمان بدمه لإظهار بره من أجل الصفح عن الخطايا السالفة بإمهال الله. لإظهار بره في الزمان الحاضر ليكون باراً ويبرر من هو الإيمان بيسوع (رومية ٣: ٢٥ و٢٦)

ونقول إنه نفذ ذلك في نفسه لأن «الله كان في المسيح مصالحاً العالم لنفسه» (٢كو ٥: ١٩)

فالقداسة الإلهية هي التي اقتضت الموت «لأن أجرة الخطية هي الموت» والمحبة الإلهية هي التي أخذت على عاتقها أن تثبت قداسة لم يكن لها مندوحة عن مواجهة الموت

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved.

ففي الصليب يصالح الله الخطاة. فيبرر الأثيم وتزول الخطية. ومن تأمل في الصليب بضمير حي أدرك حقيقة طبيعة الله المحب القدوس من ذلك العمل العظيم وعلم كنه البر وحقيقة الخطية وحقيقة نفسه. فيوافق إذْ ذاك على دينونة الله للخطية ولنفسه وبعمله هذا ينال المغفرة. ولماذا؟ إذْ لا يكون فيما بعد خطر من الخلط بين المغفرة وعدم الاكتراث للخطية الذي يقوي شوكة الخطية. بل إن الإنسان يعبد إذْ ذاك القداسة المتمثلة لعينيه فيصلب مع المسيح عن الخطية والعالم وإبليس ويقوم معه أيضاً بالإيمان ويحيا لله وللقداسة فقط

❁ ❁ ❁

فأعظم الخطاة يستطيع أن يجد سلاماً في الصليب إذْ مهما كثرت خطاياه فإن المسيح قد قابلها بعلاج يساويها ويزيد عند مصارعته للخطية نفسها ولأميرها. أجل إن أعظم المجرمين يستطيع أن يعادل نفسه بالإيمان بحامل خطاياه فيتخلص منها ويصبح من فئة المخلصين. أما من أحجم عن ذلك فهو في خطر أن يعادل نفسه بمن قاوم المسيح أي أمير الخطية الذي حاول أن يهلك ذلك القدوس ولكن القدوس غلبه وسيبيده يوماً ما هو والذين لم يتشيعوا ضد الخطية وأميرها مع ملك البر أي المسيح

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved.

هل وقفت على جميع الأحوال المتعلقة بموت المسيح

كما هي مدوّنة في مصادرها التاريخية الحقيقية؟

إنّها مذكورة بالتفصيل وبالحرف الواحد في كتاب قصة آلام فادي الأنام

هذا الكتاب منمَّقٌ تنميقاً جميلاً برسومٍ وصورٍ على طرازٍ عربي قديم بديع. وثمنه ٧ غروش

ولك إذا شئت كتاب آخر أخصر منه في هذا الموضوع مجموعاً من المصادر نفسها وهو سيدنا عيسى موته وقيامته وثمنه خمس مليمات

ولك بيان مفصَّل، عن حديث المسيح على المائدة، في آخر ليلة قبل موته، تجده في رواية العشاء الأخير وثمنها خمسة مليمات

وإنْ اعتراك أقلّ شك في صحة هذه الحوادث التاريخية فطالع الحقائق التي في إثبات صلب المسيح والثمن خمسة عشر مليماً

ولا تبد حكمك قبل البحث والمطالعة

جميع هذه الكتب يمكن الحصول عليها من إدارة المطبوعات ١٨ شارع الترعة البولاقية ببولاق مصر ومن المكتبة الإنكليزية في شارع قصر النيل بالقاهرة

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved.